حوار الفلسطينيين

بين العقل والواقع ومخططات شارون وردود أفعالنا

ليس ما قامت وتقوم به إسرائيل سياسة ولا حربا، وإنما شيء جديد اسمه الشارونية! وهو مزيج من التنكيل والعربدة والجنون. أما مقاصده فواضحة لنا. غير أنها ربما كانت خافية على الكثيرين في العالم، بمن فيهم معظم الإسرائيليين!.

فهل عرف العالم قبل اليوم سياسة يوجهها البغض والحقد الشخصي ويوقعها في حماقة عدم تقدير الخصم، ويزين لها التصرف على هذا النحو الشاذ غير المسبوق ضد زعيم يتمتع بمكانة رئيس دولة. وهو تصرف يصدم الحس الإنساني الكائن في جميع البشر ناهيك عن القادة والسياسيين، ويشحن في الخصم (الذي هو نحن الفلسطينيين) ويطلق طاقات كانت هامدة؟! ألم ير شارون كيف أدت المبالغة في استخدام القوة ضد مقر الرئيس في رام الله وأدى الاحتقار والاستهتار الذي انطوى عليه ذلك كله إلى عكس المطلوب إذ خرجت الناس غير مبالية بالموت، وكسرت وضعية حظر التجول المفروضة على البلد كلها؟! وهل كان من السياسة ـ حتى بمنطق الإسرائيليين أنفسهم ـ أن يمنع شارون مبعوث الاتحاد الأوروبي ميجيل موراتينوس ثم ممثل الأمين العام للأمم المتحدة تيري لارسن من مجرد مقابلة أبو عمار؛ علما بأن الاتحاد الأوروبي هو السوق الذي يستورد أكبر قدر من السلع الإسرائيلية، وأن إسرائيل الدولة مدينة بمولدها نفسه لقرار من الأمم المتحدة؟! وهل من السياسة ـ أيضا بمنطق الإسرائيليين لا العرب ـ أن يمعن شارون في جنونه حتى يضطر الكاتب اليهودي الأمريكي توماس فريدمان المتعلق قلبه بإسرائيل للقول في مقاله المنشور في النيويورك تايمز يوم الأربعاء الماضي: "يتساءل المرء حقا أليس ما يريده السيد شارون هو نسف الحركة الوطنية الفلسطينية بأسرها على أمل أن تأتي سلطة فلسطينية عجيبة ذات يوم فتستسلم ببساطة للاحتلال الإسرائيلي؟.. فإذا كان هذا هو الطريق الذي يسلكه السيد شارون فذلك لن يوصل إلا إلى الدموع. وإذا سار فريق بوش في الوجهة ذاتها فسيورده ذلك موارد الندم. وتذكروا دائما أن العنوان الرئيسي لسيرة حياة شارون العبرية هو: إنه لا يقف عند أي ضوء أحمر. " انتهى كلام فريدمان.

ثم.. هل عرف العالم قبل اليوم قتالا تشن فيه الجرافات حربا ضد الجدران والسقوف والأبواب والشبابيك وموتورات التكييف، بينما صفوف الدبابات تحمي الجرافات وتغتال الهواء بآلاف الصليات النارية من مختلف الأسلحة، وبينما منادي الجيش المدجج بأحدث آلات الحرب ينادي الرئيس الذي مد يديه للسلام ووقع على الاتفاقات: اخرج خلال عشر دقائق وإلا نسفنا ما تبقى من المبنى على رأسك؟!

لا.. لا.. ليست هذه سياسة ولا حربا. إنها فقدان مطلق للأعصاب، وتنكيل بدني ونفسي وحشي يبرره شارون لنفسه بالمقاصد والمخططات التي يبشر أتباعه أنها ذات أهمية استراتيجية لمستقبل إسرائيل، والحقيقة أنها صارت بالنظر إلى استحالة نجاح تلك المخططات،موضوعيا وعمليا، عبارة عن مسلك عصبي مزاجي ينطلق من حقد هائل على الفلسطينيين ورئيسهم، وينطلق أيضا من خيبة ثقيلة يحس بها شارون، لأنه من حيث أراد أن يصنع لنفسه بعد تاريخه العسكري مكانة الزعيم السياسي غير المنازع الذي حقق للإسرائيليين الأمن المطلق والهيبة والرفاه الاقتصادي، فوجئ حينما أعمل في الفلسطينيين سيف الاغتيال والقصف الجوي والأرضي والبحري بعدد من العمليات الثأرية في عمق إسرائيل يفوق ما وقع في عهود غيره، فأضاع الأمن كما لم يُضِعه أحد ... وفوجئ،حينما غرز سيف الاحتلال مجددا في مناطق السلطة الوطنية، بالصبية الفلسطينيين يلاحقون دبابات ألميركافا في الشوارع كأنهم أسراب من الدبابير تترصد رؤوس الغزاة، فأضاع الهيبة كما لم يُضِعها أحد ... وفوجئ حين ضرب حصارا مشددا وشن حربا اقتصادية ضروسا على الفلسطينيين، بأزمة وركود وبطالة داخل إسرائيل وبتدهور في سعر صرف الشيكل، فأضاع الرفاه كما لم يُضعه أحد ...!

لكن هذا الطاغية الأثيم ظل مع ذلك يحتفظ في الساحة السياسية الإسرائيلية بتأييد قوي ربما ضَعُفَ الآن ولكنه لم يتبدد على الرغم من فشل صاحبه المضاعف. وذلك أنه أوتي قدرة الغوغائيين الدجالين على التأثير في من هم أضعف منهم إرادة أو حيلة أو جاها. فسارت النخبة اليمينية من ورائه وقد خدرها بوعوده حول برنامج المذبحة والتدمير والتهجير للفلسطينيين، مطالبا الجميع بمزيد من الوقت كي يؤتي ذلك البرنامج ثمرته ألا وهي تدمير الكيان الوطني الفلسطيني بكل أشكاله وإلى الأبد. أما النخب اليسارية فسايرته من قبيل

الانتهازية وعشق السلطة المأثور عن أعمدة حزب العمل ونفاقهم للرأي العام اليميني المزاج، وعلى رأس هؤلاء شيمون بيريز وبنيامين بن إليعيزر اللذان سارا في ركابه طائعين على الرغم من أنهما استحالا في ائتلاف شارون أداتين للتنفيذ أكثر من كونهما شريكين في القرار..

ومازال شارون يكابر بمنطق (عنز ولو طارت!) متخيلا أن مخططه ناجح ونافذ وأن كل ما يلزمه قليل من الوقت. وفي اعتقاده أن الوقت يحمل إليه النبأ السعيد وهو حدوث حرب أهلية فلسطينية تحقق له ما لم يتحقق بطائراته ودباباته ومدافعه. وهو يرى،بعين هواه، في إصرار المجلس التشريعي على بحث الثقة في التشكيل الوزاري،كما يرى في استقالة الوزارة، تشققا في الكيان الفلسطيني. وهناك فريق في حركة فتح يقول علنا وليس سرا إن العمليات التفجيرية الاستشهادية داخل الخط الأخضر تسئ للمصلحة الوطنية العليا، ويقول إن على القيادة أن تبدأ بضبط عناصر فتح التي انساقت وراء العمل العسكري تمهيدا لضبط عناصر حماس. وهناك في المقابل الفريق الذي يقول إن المقاومة يجب أن تستمر وإن تسع سنوات من المفاوضات مع الإسرائيليين لم تجلب للفلسطينيين شيئا. ويرى شارون في هذا الجدل الدائر تشققا في الكيان الفلسطيني. وهو ينسى أن الفلسطينيين حين يختلفون فإنهم يختلفون في إطار الوحدة الوطنية، وإن توجههم للإصلاح كان أسبق من مناداة أمريكا وإسرائيل بإصلاح لفظي لا يعني في الحقيقة غير إركاب عناصر متعاملة معهما فوق ظهر الشعب والقضية الفلسطينية. وينسى أن الدمار الهائل الذي يوقعه بالفلسطينيين وعمليات القتل اليومي لم تدع للفلسطينيين خيارا دون خيار المقاومة والوحدة الوطنية، وأن الشارع الفلسطيني قادر على فرض إرادته على النخب والفصائل إن أدت اجتهاداتها إلى الاحتداد في التعبير عن وجهات النظر المختلفة وهددت الوحدة الوطنية تهديدا جديا، فقد تعززت في الشارع الفلسطيني حالة من التلاحم الميداني القوي. وينسى أن محاصرة الرئيس عرفات وصحبه والتضييق عليهم بهذا الشكل دفع مختلف الشخصيات المسؤولة ذات الاجتهادات المخالفة إلى الحرص على إصدار البيانات بنفي مجرد التفكير في القيادة البديلة، لأنه لا يعقل الاشتغال بأي تغيير في اللحظة الحاضرة بينما الرئيس الذي يمثل شخصية البلد وقمة الشرعية الفلسطينية محشور في هذا السجن الخسيس. وبديهي أن هذا الاعتبار هو الذي دفع حركة فتح حصرا لإصدار بيانها الذي يقول بوضوح إن ((حركة فتح حركة واحدة موحدة خلف رئيسها وإن كافة أطر الحركة تلتزم في جميع تحركاتها واتصالاتها بقرارات وتوجيهات اللجنة المركزية برئاسة الأخ الرئيس أبو عمار)).

والشيء نفسه يصدق بالنسبة لمختلف فصائل العمل الوطني والإسلامي. فالاتفاق في الجوهر حاصل فيما بينها ولو اختلفت اجتهاداتها حول ألف مسألة ومسألة. ولن تبلغ درجة الاختلافات بينها أبدا ما يشتهيه شارون من خوض بعض الفلسطينيين في دماء بعض أو قسمة الشعب الفلسطيني إلى نصفين: نصف سجان ونصف سجين. إن هذه المسألة مستحيلة ولا يحلم بها إلا ذلك الذي يعيش داخل أوهامه.

نحن لا نقول كلاما للاستهلاك المعنوي، ولا نقلل من شأن اختلاف الاجتهادات ولكننا نضيف كي نبرهن عليه بالبرهان الساطع: مهما يكن أمر الاختلافات الأيديولوجية، ومهما تكن الفجوة بين الاختلافات التحليلية، فالحقيقة العملية تجلت في أمرين اثنين:

الأول ـ إن أعمال المقاومة على اختلاف ألوانها شملت جميع الفصائل وجميع الأجيال وجميع الطبقات وجميع المدن والقرى. لقد قامت فتح والشعبية والديمقراطية بألوان الأعمال العسكرية كافة مثلما قامت حماس والجهاد. ولم ينفرد أحد دون أحد بلون واحد من ألوان العمل.

والثاني ـ إن حماس وغير حماس في الجانب الفلسطيني استجابت أكثر من مرة للمناشدات التي طلبت منها التوقف عن العمليات داخل الخط الأخضر وعدم إعطاء ذريعة لإسرائيل في عدوانها على الفلسطينيين. وفي اعتقادي الذي أبنيه على هذه السوابق أنه إذا كانت هناك ضمانة لوقف إطلاق النار من جانب إسرائيل، فإن جميع الأطراف الفلسطينية تلتزم بما تتعهد به القيادة الفلسطينية من وقف إطلاق النار. فذلك شيء سبقت ممارسته من قبل. وما يقال خلاف ذلك في التصريحات الصحافية إنما يقال يأسا من إمكان توقف الآلة العسكرية الإسرائيلية عن المضي قدما في مخطط شارون. ونستطيع أن نعيد إلى الذاكرة بسهولة ما حدث مؤخرا من توقف العمليات داخل الخط الأخضر مدة خمسة وأربعين يوما كاملة، في حين استمرت أعمال جيش الاحتلال بتصاعدها وتسارعها كأنها على سباق مع الزمن لإنهاء الوجود الفلسطيني. وهذا المثال حدث سابقا فتوقفت العمليات داخل الخط الأخضر إلى أن استفزها شارون باغتيال بعض القادة الفلسطينيين.

المشكلة قائمة في الجانب الإسرائيلي لا الفلسطيني. وشارون لا يجهل حقيقة كون الفلسطينيين كلهم بقضهم وقضيضهم مستعدون لوقف إطلاق النار بشرط أن يتوقف إطلاق النار من جهة الإسرائيليين الذين لا تقاس نيران الفلسطينيين بنيرانهم بتاتا. غير أن شارون يعتقد أن وجود الإدارة الأمريكية الحالية فرصة ذهبية من السماء لتنفيذ الحل الشاروني للقضية الفلسطينية الذي يتلخص في القتل والتهجير والإبقاء على عدد من الفلسطينيين تحت الحكم الإسرائيلي كاف للقيام بالأعمال الرثة والقذرة في خدمة الاقتصاد الإسرائيلي لا غير. ومن هنا فهو لا يريد أن يوقف النار حتى لو صار الفلسطينيون مجرد عصافير مغردة تنشد أنشودة السلام.

إن الإحصاءات التي تبين حجم الموت والجرح والإعاقة والنسف والتدمير والتجريف والمصادرات الواقعة على الفلسطينيين هائلة وتدل على نوايا شارون بوضوح. وقد كان مما يسترعي الانتباه في الإغارات الأخيرة التي قامت بها المدرعات الإسرائيلية في حي الشجاعية وحي الزيتون المتجاورين بغزة أن مدفعية الدبابات قامت بتدمير منازل الشهداء محمد فرحات ومنذر ياسين ومحمد حلس، وكلهم استشهد في عمليات ضد مستوطنات قائمة داخل حدود قطاع غزة. وتلك رسالة تقول إن المقاومة هي الممنوعة أيا كان ميدانها ومكانها، ويريد الإسرائيليون توقيع الرسميين الفلسطينيين على وثيقة بأنهم يضمنون بنسبة ١٠٠ % عدم قيام أية جهة فلسطينية، رسمية أو شعبية، بأية عملية ضد الاحتلال مهما كان شكلها، ولو بإلقاء حجر من قبل تلميذ مدرسة..

يقول لنا العقل إن علينا إبداء المرونة السياسية القصوى من أجل انتزاع الذرائع من يد شارون، لا سيما أن ميزان القوى مختل هذا الاختلال والعالم العربي يتفرج على المذابح عاجزا عن المشاركة بثقله في الانتفاضة. ولكن إدراكنا للحقائق التي قد تخفى على غيرنا ولا تخفى علينا يدلنا أن شارون مصمم على الاستفزاز دون هوادة من أجل استدراج ردود الأفعال كي تبقى الحلقة المفرغة مستمرة. وشارون ليس المنفرد بذلك دون بوش وطاقمه. فما تابعناه من تضييق على العراق الشقيق، وما أبداه العراق من مرونة زائدة لم تعد عليه بأية نتيجة، يحملنا على القول إن المخططات الموضوعة عند كل من التابع والمتبوع لا تتوقف إلا على اكتمال التجهيزات. وفي البداية كانت الذريعة موقف العراق من مسألة عودة المفتشين، فلما أعلن العراق موافقته على عودتهم دون شروط نزولا على رأي إخوانه العرب القائلين له عليك أن تسقط الذريعة، إذا بحجة جديدة تقام بالزور والبهتان هي حجة علاقة قديمة بين العراق وأسامة بن لادن. وثابرت الولايات المتحدة طوال الوقت على ترديد الأسطوانة الدعائية السوداء، أسطوانة احتواء العراق على أسلحة كيماوية وجرثومية ونووية.. تارة يقولون إن العراق يمكن أن يصنع قنبلة نووية في ظرف ثلاث سنوات وتارة خلال سنة وأخرى خلال ستة أشهر. وكانت آخر الدعايات والذرائع هي التي تفتق عنها ذهن بوش إذ جعل لنفسه ثأرا بائتا عند صدام حسين، بدعوى أن صدام كان يحاول قتل جورج بوش الأول.

والمثال الشاروني منطبق على الأمريكي تماما. ففي البداية كانت ذريعة شارون أنه يريد من الطرف الفلسطيني وقف العنف بنسبة ١٠٠ % ثم صار يطلب إدانة الإرهاب على لسان السلطة الفلسطينية بوضوح. فلما أصدرت التصريح المطلوب وداومت عليه صار المطلب محاربة الإرهاب (في الحين الذي ضربت فيه طائرات شارون من طراز الأباتشي والإف ١٦ مراكز قوات الأمن والشرطة الفلسطينية في جميع المناطق ولم يعد لدى السلطة الفلسطينية أجهزة ولا مقرات ولا مواقع). ثم صار المطلب إصلاح السلطة الفلسطينية، ثم عزل الرئيس المنتخب للشعب الفلسطيني. وفي غضون ذلك لم تتوقف الآلة الحربية الشارونية يوما واحدا عن القتل والتدمير والاعتقال والتجريف وهدم المنازل وردم الآبار والتغلغل في مناطق اكتظاظ الفلسطينيين وتخريب كل ما يعتزون به من تراث وعمارة وآثار.

هذا الكلام موجه بصورة خاصة كي يتذكره ويضعه في الاعتبار الإخوة الذين يتداولون في شأن أشكال العمليات العسكرية، والذين ينحون باللائمة على أطراف في الساحة الفلسطينية بسبب قيام هذه الأطراف بأخطاء في اختيار ألوان العمليات واختيار التوقيتات. وهم يقولون إنه لولا هذه الأخطاء (وبعضهم يدعوها مؤامرات ضد مشروع السلطة الوطنية ذاته) لما أخذت التطورات هذا المنحى الذي أخذته ولما قام شارون بما قام به، ويضيفون إن من حق الفصائل الإسلامية أن تمارس دورا سياسيا أسوة بغيرها، ولكن ليس من حقها ولا من حق أحد أن تكون له ميليشيا مسلحة، لأن السلطة لا تتحمل ثنائية القرار العسكري والأمني.

أمام تزايد الهجمة الشارونية بل وسعارها المحموم لم يعد في الوسع الحديث عن إصلاح في السلطة الفلسطينية ولا يحزنون. إن الناس يبيتون كل ليلة غير عارفين كيف سيكون صباحهم التالي. وأولويتهم الأولى هي تأمين لقمة العيش لأولادهم. والحكومة المستقيلة التي تعتبر حكومة تسيير أعمال لا تملك رؤية استراتيجية لمواجهة الوضع. وجميع الذين يوصفون بأنهم (مطلعون) يعيشون في انتظار الضغط الأمريكي على إسرائيل لفك حصارها المضروب على المقاطعة برام الله. والأمريكيون الذين منحوا شارون الضوء الأخضر لأفعاله كافة، يكتفون آنيا بإطلاق التصريحات التي تطلب من إسرائيل إنهاء هذا الحصار. ولكنها تصريحات مقصود بها تقديم وجبة وهمية للاستهلاك في المنطقة العربية. أما الحقيقة التي لا تخفى على كل من يستطيع التمييز بين الحقائق والمظاهر فهي أنهم متواطئون في لعبة استخدام الوقت للحصول من الرئيس المحاصر على إقرار بترحيل من تدعوهم إسرائيل مطلوبين إلى خارج البلاد، وربما للحصول على إقرارات أخرى فذلك ما يفهمه المرء من آخر تصريحات الرئيس عن المحافظة على الثوابت وعدم التفريط بحقوق شعبنا مهما غلت التضحيات.